السياق وإنتاج المعنى
قراءة تأصيلية نقدية في نظرية السياق القرآني

د. الخامسة علاوي
جامعة قسنطينة 1

كان القرآن وما يزال يمثِّل مرجعية الفكر والحضارة العربية الإسلامية ، ومحور ثقافة الفرد العربي ،وإنما أُسست كل علوم العربية قديما وحديثاً بداعٍ منه؛ فهي وُجدت من أجل بيانه وكشف درره و أسراره ، بل هي اليوم تستمد مشروعيتها علوماً وآداباً من وجوده ؛ لأنها تعنى بإزاحة الستار عن جماليات النص القرآني ورفعة مضامينه ، مع يقين مدونيها "أنّ طبيعة الخطاب القرآني بما هو خطاب لغوي ذو خاصية في التراكيب والمعنى تفرضان على متلقيه ودارسيه نوعا من القراءة الدقيقة المتأنية "[1]، لتحقيق الغاية من إنزاله والممثلة في هداية العالمين قال تعالى :(ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)[2] التي لا تتأتى لمريديها إلاّ عند تدبره وطلب تفسيره علما أنّ حقيقة التدبر هي إمعان النظر والفكر في سياق الآية أو الآيات والربط بينها للوصول إلى معرفة المراد منها وبالتالي ينتج العمل بها.

فلا ريب أنّ الوقوف عند حقيقة السياق القرآني هو جزء من تدبر القرآن الكريم، الذي ربط الله التنزيل به، وليس هذا فحسب بل جعل الغرض الأساس

---

[1] - المصطفى، عواطف كنوش: المعنى والتأويل في النص القرآني ، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط1 ، 2010 ، ص17 .

[2] - سورة البقرة ، آية 2 .

من الإنزال القرآني هو التدبر والتذكر ، لا مجرد التلاوة على عظم أجرها ؛ وذلك حين قال عزّ وجلّ: (كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدّبروا آياته وليتذكّر أولو الألباب)[1]. قال الحسن البصري "والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إنّ أحدهم ليقول: قرأت القرآن كلّه ما يُرى لهُ القرآن له في خُلُق ولا عمل"[2].

ومما سبق نستأنس أنّ السياق "بما هو الصورة الكلية التي تنتظم بداخلها الصور الجزئية "[3]هو من أهم ما يوصل للفهم الصحيح لكتاب الله ؛ إذ "يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل ، والقطع بعدم احتمال غير المراد ، وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة ، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره ، وغالط في مناظرته . فانظر إلى قوله تعالى :(ذق إنّك أنت العزيز الكريم) [الدخان]، كيف تجد سياقه يدلّ على أنّه الذليل الحقير"[4] ، فاعتبار السياق جعل كلام الله متناسبا ، منتظماً ، وهذا هو الأنسب لكتاب الله المعجز المحكم .

ومن أجل ذلك اكتسى السياق أهمية كبيرة في "كشف وإيضاح المفردة القرآنية لأنّ هذه اللفظة ؛إذ تركب فإنّ فيها دلالات مكتنزة لا تظهر وتنكشف إلاّ بالسياق، إذ إنّ السياق هو الحكم في توجيه دلالة المفردة وتحديدها (...) ، وقد يفهم من المعنى السياقي أمران مرتبطان بعضهما ببعض إذْ يكمّل أحدهما الآخر:

الأول : إنّ معنى اللفظ يرتبط بالسياق اللغوي وهو جزء من معنى السياق الذي يرد فيه .

---

(1)- سورة ص ، الآية 29 .

(2)- ابن كثير: تفسير ابن كثير ، ط.طيبة ،المدينة المنورة ، ج7 ، ص64 .

(3)- السياق في الدراسات البلاغية والأصولية ،ص 6

(4)- ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد، تح.سيد عمران وعامر صالح ، دار الحديث ، القاهرة ، د.ط.، 2006 ، ج4 ، ص789 .

الثاني: أنّ السياق لا يكون إلاّ بوجود نصوص ، وإنّ معرفة معناه يقوم على أساس معرفة معاني الألفاظ التي تربطها علاقات قوية ويجمعها بناءً متماسكاً موحداً "[1].

وعليه يتكون المعنى السياقي للعبارة من "معاني الألفاظ التي تتألف منها وكيفية استعمال هذه الألفاظ في نص تلك العبارة اللغوية ، فأية لفظة ليس لها إلاّ معنىً واحدٍ يحدده السياق، لأنّه :

1- يوجد في السياق قرائن تعين على اختبار معنى واحد من بين المعاني المختلفة التي يجدها في المعجم .

2- ولأنّ السياق أيضاً يرتبط بمقام معينٍ يُحَدِّد المعنى في ضوء القرائن الحالية."[2]

وتأسيسا للأفكار السابقة يتبيّن لنا أنّه ثمة معنيان : المعنى السياقي والمعنى المعجمي، وقد عقد بينهما صاحب بحث (السياق في الدراسات البلاغية والأصولية) مقارنة دقيقة مفادها أ نّهما معنيان متقابلان ؛ فالمعنى المعجمي هو المعنى الذي نستقيه من المعجمات المختلفة، ويمثِّل المعنى الوضعي الأصلي للفظ ، وقد أَطلق عليه إبراهيم أنيس المعنى المركزي أو الأساس[3] . ويتميّز هذا النوع من المعنى للكلمة بكونه معنًى عائماً ضيّقاً ، لا ينبئ عماّ في الكلمة المفردة من دلالات أوسع من معناها المعجمي .

أما المعنى السياقي فهو المعنى الذي يُستقى من النظم اللفظي والمعنوي للكلمة وموقعها من ذلك النظم ، أو من السياق العام للكلام ؛ إذ تخضع الكلمة

---

(1)- ناصر عبد الاله كاظم : دلالة لفظة(قضى)في السياق القرآني ، مجلة مركز دراسات الكوفة ، جامعة الكوفة – العراق ، ص 75 .

(2)- دلالة لفظة (قضى) في السياق القرآني، ص ص 75-76 .

(3)- إبراهيم أنيس: دلالات الألفاظ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط3 ، 1972 ، ص213 ، ص 106 .

للعلاقات المعنوية والظروف الحالية والتعبيرية المحيطة بها التي يأتلف بعضها مع بعض ليعطي معنىً خاصاً لتلك الكلمة ، وهو ما يُطلق عليه المعنى الإضافي أو الهامشي أو ظلال المعنى[1] .

ولعل "الفارق الأساسي بين المعنيين : المعجمي والسياقي هو تعدد الأول و تحدّد الثاني ، إذ يعين الأول على تحديد البعد الدلالي للكلمة ؛ لأنّها تحتمل أكثر من معنى ،و هو في الغالب معنىً مفرد منفصل يقوم على التجريد، أما الثاني فهو معنى محدد تحكمه علاقة الكلمة بكلِ ما يحيط بها من عناصر لغوية وغير لغوية ، خاصة بالمتكلم والمخاطب ، ثقافية واجتماعية ، ولذا فهو لا يقبل التعدد، ففي كلِ سياق تكتسب الكلمة معنىً محدداً مؤقتاً يمثّل القيمة الحضورية لها ، التي تختلف من سياق إلى آخر ، لذا فإنّ المعاني السياقية للكلمة الواحدة تتعدد بتعدد السياقات التي ترد فيها"[2].

ولئن كانت دلالة السياق المعجمية تدور حول معاني قيادة الإبل ، وإعطاء المهور ، ونزع النفس والروح عند الموت ، والإفضاء بالحديث والكلام في تتابع غير مخل ، فإنّ دلالته الاصطلاحية تأخذ مداها في التنوع والاتساع بحسب الأبحاث التي تناولت السياق بأنواعه المختلفة وأركانه المتباينة ، بل بحسب الأهمية التي أولتها هذه الأبحاث للسياق كمصطلح نقدي يمتلك الجذور الأصولية البلاغية اللافتة لانتباه المتلقين من جهة ، وللسياق كنظرية متكاملة ترتبط بجهود علماء كُثر يأتي في مقدمتهم اللغوي الانجليزي (فيرث) من جهة ثانية. هذا الذي أسسّ نظريته انطلاقا من إيمانه الجازم بأهمية الوظيفة الاجتماعية للغة ؛ حيث تأخذ نظريته في الحسبان الأقوال والأشخاص وغيرها مما يكون في الموقف الذي تستعمل فيه اللغة ، كالصمت والضحك والإشارة .

---

[1] - أسامة عبد العزيز جاب الله : السياق في الدراسات البلاغية والأصولية – دراسة تحليلية في ضوء نظرية السياق ، متاح على الشبكة www.pdffactory.com

[2]- نفسه، ص5 .

وقد أصبحت هذه النظرية واسعة النفوذ وذات قيمة كبيرة في دراسة المعنى فيما وربما هذا ما جعل ((ستيفن أولمان) يقول:" وضعت لنا نظرية السياق مقاييس لشرح الكلمات وتوضيحها عن طريق التمسك بما سماّه الأستاذ فيرث (ترتيب الحقائق في سلسلة السياقات ، أي سياقات كل واحد منها ينضوي تحت سياق آخر ولكل واحد منهما وظيفة لنفسه ، وهو عضو في سياق أكبر، وفي كل السياقات الأخرى ، وله مكانه الخاص فيما يمكن أن نسميه سياق الثقافة) والحق أنّ هذا المنهج طموح إلى درجة لا تستطيع معها في كثير من الأحايين إلا تحقيق جانب واحد منه فقط ، ولكنه مع ذلك يعدنا بمعايير تمكننا من الحكم على النتائج الحقيقية حكما صحيحاً"[1]. هذا وقد عدّ نظرية السياق- إذا طُبِقت بحكمة – حجر الأساس في علم المعنى لأنّها قادت إلى مجموعة من النتائج الباهرة [2]، ولم يقف اهتمامه بها عند هذا الحد بل راح في مقامات عديدة يعتبر المنهج السياقي خطوة تمهيدية للمنهج التحليلي مصرّحا بأنّ المعجمي يجب أولا،أن يلاحظ كلّ كلمة في سياقها كما ترد في الحديث أو النص المكتوب ، بمعنى أننا يجب أن ندرسها في واقع عملي (أي في الكلام) ثمّ نستخلص من هذه الأحداث الواقعية العامل المشترك العام ونسجِله على أنّه المعنى للكلمة [3].

ورغم أنّ نظرية السياق فقدت شيئاً من أهميتها عند الدارسين بعد وفاة فيرث سنة 1960، وذلك حين طغى التحليل الصوتي والنحوي على الجوانب الشكلية في اللغة ، إلاّ أنّ الاهتمام بها عاد مع الدرس الدلالي عند من يسمّون

---

(1)- ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ، مكتبة الشباب ، د.ط ، 1972 ، ص 61 . (1)

(2)- نفسه، ص73 .

(3)- خالد عبود محمودي الشيخلي: نظر في نظرية السياق –دراسة بين القدماء والمحدثين ، متاح على الشبكة / موقع مدونة أهل التفسير .

(الفيرثيين الجدد) في بريطانيا ، وعند التحويليين في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبذلك أضحت نظرية السياق منهجاً عملياً في دراسة المعنى يقوم على ثلاثة أركان رئيسة هي :

الأول :وجوب اعتماد كل تحليل لغوي على ما يسمى بالمقام أو سياق الحال، وسياق الحال هو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي أو للحال الكلامية، وهذه العناصر هي:

١ -الكلام الفعلي نفسه.

٢ -شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي والحقائق المتعلقة بالمشاركين في الحدث اللغوي

٣ -الأشياء والموضوعات المناسبة المتصلة بالكلام وموقفه.

٤ -أثر العبارات اللغوية المنطوقة بالسامعين وفقا لمعتقداتهم .

٥ -العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي كمكان الكلام وزمانه والوضع السياسي وحالة الجو إن كان لها دخل.

الثاني :وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس وصيغته لكي نضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى أو لهجة وأخرى أو بين مستوى كلامي ومستوى كلامي آخر ، لأنّ من شأن هذا الخلط أن يؤدي إلى نتائج مضطربة غير دقيقة، ومن ثمّ يجب تحديد البيئة الاجتماعية والثقافية التي تحتضن اللغة المراد دراستها ، لوجود الصلة الوثيقة بين اللغة والثقافة المحتفية بها ، وهو ما يمكن أن يسمى بالسياق الثقافي وهو أمر مهم بالنسبة إلى الفصل بين المستويات الكلامية ، كلغة المثقفين ولغة العوام أو لغة الشعر ولغة النثر .

الثالث : وجوب النظر إلى الكلام اللغوي على مراحل، لأنه مكون من أحداث لغوية مركبة ومعقدة وتحليلية على هذا المنهج أيسر وأسلم، إذ تقود كل

مرحلة إلى التي تليها في سهولة ويُسر .وهذه المراحل هي فروع علم اللغة، والنتائج التي تصل إليها هذه الفروع هي مجموع خواص الكلام المدروس، وهذه الفروع وثيقة الصلة في ما بينها، وغايتها إجلاء المعنى اللغوي، فالمعنى اللغوي-كما ذكرنا - له وسائله الصوتية ثم الصرفية والنحوية والمعجمية والوظيفة الدلالية لسياق الحال، ولا بد للوصول إلى المعنى من الربط بين النتائج التي تنتهي إليها هذه التحليلات جميعاً ربطاً يدخل في اعتباره سائر عناصر (سياق الحال).

وهكذا فالوصول إلى معنى أي نص لغوي يستلزم ما يأتي :

١ -أن يحلل المستوى اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة :الصوتية، الصرفية،النحوية، والمعجمية.

٢ -أن يبين نوع الوظيفة الكلامية من تمنٍ وإغراء واستفهام وتعجب وغير ذلك.

٣ -أن يذكر الأثر الذي يتركه الكلام من اقتناع أو سخرية أو ضحك أو بكاء أو ألم.[1]

و ركحا على ما تقدم لا يشك عاقل أنّ "اهتمام (فيرث) كان منصباً على إحلال القول محلّه ضمن السياق الاجتماعي ومن ثمّ الخروج بتعميمات حول أنماط المعاني التي تفرزها سياقات اجتماعية محددة ، وقد اقترح منهجاً مقنناً لوصف هذه السياقات يشبه إلى حدٍّ كبير المناهج الوصفية الأخيرة الأكثر حداثة"[2].

وربما هذا ما جعل جلّ المآخذ التي أخذت على نظرية السياق لـ(فيرث) ، تصبّ في بوتقة أنها نظرية جاءت لتلغي المعنى المعجمي الحقيقي للفظة،لأنها

---

[1]- نظر في نظرية السياق –دراسة بين القدماء والمحدثين ، مرجع سابق ، متاح على الشبكة.

[2] – صلاح الدين زرال : إرهاصات التداولية في التراث اللغوي العربي، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح –ورقلة ، عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي الرابع في تحليل الخطاب، ص ص 63-64 .

تتعرف على معنى اللفظة بفعل السياق فحسب ، وليس ثمة معنى لها خارجه ، والأظهر ،على حد تعبير الباحثين عبد الزهرة الجنابي وحيدر جبار عيدان ،أنّ في هذا تطرفاً واضحاً وتشدداً في الاتجاه نحو الرؤية السياقية ، لأنّه يغفل المعنى الأساس للفظة خارج السياق ، ولا يقر بمعنى لها بمعزل عن السياق[1].

هذا ولقد قسّم بالمر السياق إلى قسمين : السياق اللغوي والسياق غير اللغوي [2]، في حين اقترح (آمر) تقسيمات للسياق تمثلت في السياق اللغوي ، السياق العاطف، سياق الموقف« SITUATION CONTEXT » ، السياق الثقافي « CULTURAL CONTEXT».

وحري بنا في مثل هذا المقام أن نشير إلى أنّ من الغربيين من كان أقل حدّة من (فيرث) وهو (فندريس) الذي يقرّ بأنّ الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديدا مؤقتاً، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها . وكأنّ فندرس يود الإشارة إلى أنّ للكلمة دلالتين هما : الدلالة الثابتة وهي المركزة ، وقد سبق الحديث عنها ، ودلالة مؤقتة (إضافية) يمنحها إياها السياق.

وبناءً على ما سبق يمكن القول إنّ معنى الكلمة هو مجمل السياقات التي يمكن أن تنتمي إليها مضافا إلى ذلك الدلالة الأصل (المركزية)[3]. وبمعنى آخر الكلمة لا معنى لها في ذاتها لأنّها قد تحتمل تغيرات دلالية كثيرة بحسب السياق الذي ترد فيه ، فالسياق يحدد المقصود ويزيل الغموض .

---

[1]- سيروان عبد الزهرة الجنابي ، حيدر جبار عيدان : جدلية السياق والدلالة في اللغة العربية –النص القرآني أنموذجاً ، مجلة دراسات الكوفة ، كلية الآداب ، جامعة الكوفة –العراق ، العدد التاسع ، 2008 ، ص36.

[2]- أف.آر. بالمر : علم الدلالة ، ترجمة مجيد الماشطة ، الجامعة المستنصرية ، الكوفة – بغداد ، 1985 ، ص69 ، ص141.

[3]- نفسه ، ص ص 36-37 .

وعموماً إذا كانت نظرية السياق قد نشأت في الغرب حديثا وتطورت في ظل الدراسات اللغوية الحديثة فإنّ علماء العربية المسلمين سبقوا ذلك بمئات السنين في بيان أهمية السياق بعناصره الحالية و المقامية ، ولعلّ أول من نصّ على ذلك الشافعي [ت204هـ] في كتابه (الرسالة) حين عقد باباً سماه (باب الصنف يبيِّن سياقه معناه) أشار فيه إلى أنّ "الكلام يكون عاما ظاهرا يُراد به العام ، ويدخله الخاص،وظاهراً يعرف من سياقه أنّه يراد به غير الظاهر . فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره "[1]، فالسياق هو الذي يحدد المعنى المراد ، ويرجح بين الدلالات في النص القرآني كما يقرّ بذلك العز بن عبد السلام [ت660هـ] وذلك حين قال : "وقد يتردد معنى الآية بين محامل يتساوى بعضها مع بعض ، ويترجّح بعضها على بعض ، وأولى الأقوال ما دلّ عليه الكتاب في موضع آخر أو السنة أو إجماع الأمة ، أو سياق الكلام ، وغدا احتمال الكلام معنيين وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق كان الحمل عليه أولى "[2].وقد علّق على هذا القول أسامة عبد العزيز جاب الله بقوله: "والملاحظ أنّ العز بن عبد السلام يشير في النص السابق إلى أمرين في غاية الأهمية هما:

الأول : دور السياق في انتقاء الدلالة الراجحة للنص .

الثاني : دور السياق في عملية ترجيح الأقوال ذاتها .

وهما معاً يوضحان أهمية السياق ومنزلته في الدراسات التفسيرية"[3].ونحسب أنهما معاً يتعديان مجرد توضيح أهمية السياق ومنزلته في

---

[1]- محمد بن إدريس الشافعي : الرسالة ،تح. أحمد شاكر ، دار القلم ، دمشق، 2004 ، ص52.

[2]- الإشارة إلى الإيجاز ، ص220، نقلا عن أسامة عبد العزيز جاب الله : السياق في الدراسات البلاغية والأصولية ، ص8 .

[3]- نفسه ، نفسها.

الدراسات التفسيرية إلى الدراسات الأصولية والبلاغية لأنّ الخطاب القرآني هو مركز اهتمام جل الباحثين الذين دأبوا على البحث عن أسرار إعجاز هذا الخطاب كما يتوضّح ذلك لاحقاً .

السياق عند العرب القدماء:

بادئ ذي بدء نؤكِّد أنّه لم يقتصر الأمر لدى العلماء العرب على التنبيه على أهمية السياق اللفظي العام الذي هو أحد شقي السياق العام ، بل تنبهوا إلى أهمية معرفة سياق الحال أو العناصر غير اللفظية في النص، ودورها في توجيه الدلالة ، و"الحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الداعي إلى المتكلم على وجه مخصوص – أي الداعي إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدى به أصل المعنى خصوصية ما هي المسماة بمقتضى الحال، مثلا كون المخاطب منكرا للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم والتأكيد مقتضاها... وعلى هذا النحو قولهم (علم المعاني) علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال - أي يطابق صفة اللفظ مقتضى الحال، وهذا هو المطابق بعبارات القوم حيث يجعلون الحذف والذكر إلى غير ذلك معللَّةً بالأحوال "[1]، فالحال في اصطلاح علماء علم المعاني هو نفسه مصطلح مقتضى الحال، وهو مصطلح يقترب إلى حدٍّ كبير من مصطلح (سياق الحال) في الدرس اللغوي الحديث ويشترك معه في أهم خاصية وهي الاهتمام بالجانب الاجتماعي للغة.وهم يطلقون على سياق الحال (المقام) ، وإنّ عبارتهم المشهورة (لكل مقام مقال) تدل على تمييزهم بين شقي السياق وهذا التمييز في حد ذاته ضروري في تحليل المعنى [2].

---

[1] - التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، د.ط ، 1977 ، ج2 ، ص125 .

[2] - طاهر حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين، منشأة المعارف ، الإسكندرية – مصر، 1981، ،ص222.

بيد أنّ البلاغيين، لطبيعة دراستهم التي عنوا فيها ببيان أسرار التفاوت الجمالي بين الأساليب ، لم يفصِّلوا في شرح عناصر السياق اللفظي والحالي وبيان أثرهما في إجلاء المعنى على نحو ما فعل الأصوليون ، وإن كانوا يعتمدون على السياق في تحليلهم لأنماط النصوص .

أما الأصوليون فيظهر تمثلهم لعناصر السياق اللفظية والاجتماعية واضحا جليا في تجلية المعنى وتحديده ، وذلك من خلال ما امتلأت به كتبهم من الإشارات المستفيضة لدلالات السياق في مختلف مباحث علم أصول الفقه من مثل: دلالة الأمر ، تخصيص العام ، الحقيقة والمجاز ، المشترك اللفظي ، تقييد المطلق ، والقرائن العقلية المختلفة في توجيه معنى الخطاب وتأويله).

"وقد نبّه الأصوليون على أنّ الألفاظ المفردة والتراكيب تتعرض لأنواع من التغير الدلالي بسبب السياقات اللفظية و المقامية المختلفة ، مما يدعو إلى ضرورة الاستعانة بأنواع السياق بجميع عناصره ، الأمر الذي يتّضح في دراستهم للفظ العام ، إذ لا يراد به غالباً العموم ؛ وذلك (لأنّ العموم إنما يعتبر بالاستعمال، ووجوه الاستعمال كثيرة ، ولكن ضابطها مقتضيات الأحوال التي هي ملاك البيان)"[1].

وثمة نصوص كثيرة و صريحة تدل على إدراكهم للسياق وأنواعه ، وأثره في الكشف عن المعنى بشكل دقيق ، وإدراكهم لعناصره اللغوية والاجتماعية ، فهذا الإمام الغزالي [ت505هـ] يتحدث عن الوسائل المُعينة على فهم الخطاب الشرعي قائلاً:إنّ " طريق فهم المراد تقدم المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة، ثمّ إن كان نصاً لا يحتمل كفة معرفة اللغة ، وإن تطرق إليه الاحتمال فلا يعرف المراد منه حقيقة إلاّ بانضمام قرينة إلى اللفظ ، والقرينة إما لفظ مكشوف كقوله تعالى :(وآتوا حقّه يوم حصاده)*، والحقُّ العُشر ، وإما إحالة

---

[1]- أسامة عبد العزيز جاب الله : السياق في الدراسات البلاغية والأصولية ، م.س.، ص24 .

- الأنعام ،الآية 141.

على دليل العقل كقوله تعالى: (والسموات مطويات بيمينه)**، وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين، يختص بإدراكها المشاهد لها ، فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة ، أو مع قرائن من ذلك الجنس أو من جنس آخر. حتى توجب علماً ضرورياً يُفهم المراد أو يُوجب ظناً (...) فكل ما ليس له عبارة موصوفة فتتعيَّن فيه القرائن"[1] كالأمر والاستغراق عند منكري صيغة العموم .

وهكذا "يتضح أنّ السياق يشمل القرائن اللغوية وغير اللغوية كافة للإسهام في عملية الفهم ، وقد توخى الأصوليون توجيه الدلالة الثانية للألفاظ ، والتي حددها عبد القاهر الجرجاني بدلالة النظم ، فأرادوا توجيهها بما يتفق وقصد الشارع "[2]، هذا ويحتّم الأصوليون على من يتصدى لاستنباط الأحكام من القرآن الكريم ألاّ يغفل الآتي :

1- أنّ القرآن يفسِّر بعضه بعضاً .
2- أنّ السنة النبوية الشريفة مفسرة للقرآن.
3- أن يُلِمّ بأسباب نزولِ الآيات .

وقد زاد بعضهم معرفة النظم الاجتماعية للعرب . وغايتهم من وراء ذلك كلّه الكشف عن قصدية المتكلم المرتبطة هي الأخرى بعلاقة اللفظ بالمعنى، علماً بأن "المتكلم بالنص القرآني هو الله المطلق دلالة ، والكامل لغة ومعنى"[3] .وإنّ "المفسِّر أو المؤول في إعادة إنتاجه للنص القرآني تفسيرا وتأويلا (إنما من نقصه ينهل لا من تمام الخطاب ، وإنّه سيبقى دون تمامه ناقصاً ولذا

**- الزمر ،الآية 67 .

(1)- دراسة المعنى عند الأصوليين ، ص ص 229-230 ، وانظر أيضا : السياق في الدراسات البلاغية والأصولية ، ص ص 24-25 .

(2) - السياق في الدراسات البلاغية والأصولية، ص25 .

(3)- المعنى والتأويل في النص القرآني ، م.س.، ص23 .

فإنّ صورة الخطاب الأصل ستكون في إدراكه لها سبراً وفهما ومعايشة ، على مثاله نقصاً لا على مثال مرسله تماماً وكمالا) "[1].وربما من أجل ذلك يختلف التفسير من مفسر إلى آخر ، و"قد يتماثل تفسيران أو أكثر فيما يختص بتغير الدلالة بين المفسرين من جهة وبينهم وبين ما أراده الله سبحانه وتعالى"[2] من جهة أخرى .

فالقرآن منه "ما ورد تفسيره بالنقل عمّن يعتد بتفسيره، ومنه ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين ، وهو قليل، يُفهم بالنظر إلى مفردات الألفاظ من لغات العرب ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق(...) مما يُفيد أنّ علماء التفسير كانوا لا يكتفون بالمعنى المعجمي، بل يجمعون إليه المعنى السياقي"[3].

وركحاً على ما تقدم ندرك "أنّ الأصوليين نظروا إلى السياق باعتباره أحد موضحات الدلالة ، لا يمكن للنص أن يستغني عنه في كثير من النصوص التي لا يظهر فيها المعنى جلياً واضحا للمتلقي ، فيكون السياق هو الموجِّه للمعنى . وربما كان هذا أحد الدوافع التي دفعتهم للحديث عن الدلالة التي حصرها أبو حامد الغزالي في أضرب خمسة[4] هي على التوالي :

الضرب الأول : دلالة الاقتضاء .

الضرب الثاني : دلالة الاشارة .

الضرب الثالث : دلالة فحوى الكلام .

الضرب الرابع : دلالة السياق .

الضرب الخامس دلالة الخطاب أو المفهوم.

---

(1)- نفسه ، ص24 .

(2) – نفسه ، ص26 .

(3) – السياق في الدراسات البلاغية والأصولية ، ص 9 .

(4) – أحمد مصطفى أحمد الأسطل : أثر السياق في توجيه دلالة الحديث عند ابن حجر العسقلاني ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الآداب بالجامعة الإسلامية بغزة ، 2011 ، ص82 .

والجلي أنّ تخصيص حجة الإسلام الغزالي دلالة السياق بضرب خاص يدلّ على أهميته .ولعل من أهم الأسباب[1] التي جعلت الأصوليين يهتمون بالسياق بنوعيه ما يأتي :

1- أنّ فهم النصوص الشرعية من قرآن وحديث ،وتوجيه دلالاتها ، متوقف في كثير من الأحيان على ما يحيط بها من عناصر سياقية تحيط بالموقف الكلامي ، ولا يمكن الاستغناء عنها عند التعامل مع النصوص .

2- إحساسهم بمشكلة اللفظ والمعنى ، حيث ثبت عندهم أنّ المعنى مقدم في الاعتبار على اللفظ ، فقد ثبت عن ابن قيم الجوزية أنّه كان يقول:(فالألفاظ لا تقصد لذواتها ، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم) ولم يكتف بهذا بل ذهب إلى القول بأن المعنى هو المقصود واللفظ هو الوسيلة، وذلك حين قال: (إرادة المعنى آكد من إرادة اللفظ ، فإنّه المقصود ، واللفظ الوسيلة).

ويبدو أنّ دوافع الأصوليين أساسا كانت تسعى إلى محاولة كشف وتحليل دلالة الألفاظ وعلاقاتها بالمعاني ، وقد وجدوا لهذه العلاقة عدة اعتبارات وقسموها إلى أربعة أقسام :

أ- اللفظ باعتبار المعنى الذي وضع فيه : وعالجوا في هذا القسم الخاص والعام والمشترك اللفظي .

ب- اللفظ باعتبار المعنى الذي استعمل فيه : وعالجوا فيه الحقيقة والمجاز .

ت- اللفظ باعتبار ظهور المعنى و خفائه : وقسّموه إلى ظاهر وخفي .

ث- اللفظ باعتبار طرق الوقوف على مراد المتكلّم .

(1)- أحمد مصطفى أحمد الأسطل : م.س. ، ص ص 82-83 .

ومما لا ريب أنّ هذه الأقسام الأربعة تبرز مختلف أشكال العلاقة التي تربط اللفظ بالمعنى عند الأصوليين تماما كما تبرز اهتمامهم الدقيق بالسياق ، لإدراكهم أن فهم الخطاب موقوف عليه .

ولأنّ السياق تعلقت أهميته بمباحث متباينة من علم أصول الفقه فقد اخترنا أن نتوقف عند حدود أثر السياق في المتشابه اللفظي لأنا نرى أنّ هذا المبحث هو مبحث إشكالي بين الأصوليين والمفسرين.

تعريف المتشابه :

بقراءة مسحية لمجمل تعريفات المتشابه عند أهل اللغة نجد أنه يدور حول معنيين :

الأول : معنى المماثلة :

وقد جاء ذلك في وصف القرآن الكريم قال تعالى :" الله نـزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ....."الزمر /23. فآيات القرآن تشابهت في التنزه عن كل وصف يُلْحقُه بكلام المخلوقات، وتماثلت في كلّ وصف يوصف به كلام ربِّ العالمين منبئة أنّها تنزيل من حكيم حميد.

الثاني : معنى الإشكال والالتباس :إنّ الأمور لا تُشْكل وتشتبه إلا بوجود التماثل [1] .

المتشابه في الاصطلاح : المتشابه ويقابله المحكم "هو ما خفي بنفس اللفظ وانقطع رجاء معرفة المراد منه لمن اشتبه عليه . فأصبح لا يرجى إدراك معناه أصلا . وهو أكثر الأنواع خفاء وإبهاماً. وقد ثبت بالاستقراء والتتبع أن المتشابه بهذا المعنى لا يوجد في الآيات والأحاديث النبوية التي يقصد منها بيان

---

[1] -تهاني بنت سالم بن أحمد باحويرث : أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني ، مخطوط رسالة ماجستير ، كلية الدعوة وأصول الدين ، قسم الكتاب والسنة ، جامعة أم القرى ، 2007 ، ص 14 .

الأحكام الشرعية العملية ، فليس هناك متشابه في آيات الأحكام وأحاديث الأحكام . وإنما يوجد في مجالات أخرى ، مثل الحروف المقطعة في أوائل السور القرآنية (...) ومثل صفات الله التي توهم المشابهة للخلق (...) ، ومثل الأفعال التي تصدر عن الله تعالى موهمة التجسيم والجهة ...."[1]

وقيل : المتشابه هو المشكل الذي يحتاج فيه إلى فكر وتأمل[2]. وعرّفه الزركشي بأنّه "إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفاصل مختلفة ، ويكثر في إيراد القصص والأنباء"[3], وهو على أنواع في القرآن الكريم لا يسع المقام لذكرها .

مثاله: قال تعالى ،" وقد أضلّوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً". نوح24.

وقال أيضاً :" ربِ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد لظالمين إلاّ تبارَ".نوح 28.

موضع التشابه : اختصاص دعاء نوح عليه السلام على قومه بالإضلال في الآية الأولى وبالإهلاك في الآية الثانية .

نوعه : تشابه بالإبدال ، إبدال كلمة بأخرى .

أثر السياق في توجيه المتشابه : لأنّ الآية الأولى جاءت بعد إخبار الله تعالى عن نوح عليه السلام وعصيان قومه له وقولهم :" لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وُدا ولا سُواعا ولا يغوث ويعوق ونسراً".الآية 23 ، فناسب ذلك الدعاء عليهم بأن يزيد الله في إضلالهم الذين هم فيه ، ولمناسبتها كذلك لقوله في نفس الآية "وقد أضلوا كثيراً" .

---

[1] - وهبة الزحيلي : أصول الفقه الإسلامي ، دار الفكر ، دمشق – سوريا ، ط1 ، 1968 ، ج1، ص ص 342-343 .

[2] - أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معنى التشابه اللفظي في القصص القرآني ،م.س.، ص24 .

[3] - محمد بن عبد الله الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت د.ت. ، ج1، ص112 .

أما الآية الثانية فقد تقدمها دعاء نوح عليه السلام بهلاك قومه في قوله تعالى :" وقال نوح لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارَ"الآية 16 . فأتبع ذلك بما يناسبها من الدعاء عليهم بالهلاك و التبار[1].

في الواقع هذا واحد من عدد لا يحصى من الأمثلة الدالة دلالة واضحة على أنّ السياق يلعب دور الموجّه للدلالة في النص القرآني بتعلقاته المختلفة التي اعتنى بها علماء أصول الفقه ، مما يجعلنا نجزم أنّ النظرية السياقية القرآنية استوت على عودها في ظل الدرس الأصولي في جانبيه النظري والتطبيقي ، طبعا مع عدم التنكر لجهود علماء علوم القرآن والتفسير هؤلاء الذين كانت لهم أيضا إشارات عميقة تنبئ عن وعي مبكر بجانبي السياق اللغوي الكلي أو ما يسمى سياق النص، وسياق الموقف ؛ إذ نظروا إلى الآية القرآنية أو مجموعة الآيات على أنها جزء من نصٍ متكامل هو القرآن ، ومعنى ذلك أنّهم لا يعتمدون على السياق اللغوي الجزئي المتمثل في الآية الواحدة أو مجموع الآيات المعزولة عن سياقها الكلي ، بل اهتموا بعنصر آخر مكمل للسياق اللغوي في النص القرآني، وهو علم القراءات (بما هو العلم الذي يُعرف به كيفية النطق بالقرآن)، وعلم أسباب النزول ، وعلم المكي والمدني وأول وآخر ما نزل من الآيات ، وعلم الناسخ والمنسوخ ....إلخ وغيرها من العلوم التي كانت عناية علماء علوم القرآن بها مستمرة لا لشيء إلاّ لأنها معينة على فهم مراد اله تعالى في كتابه .

أهمية السياق القرآني:

لا ريب أنّ السياق القرآني بما هو "تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية لتبليغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود ، دون انقطاع

[1] – أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معنى المتشابه اللفظي ،م.س.، ص230.

أو انفصال"[1] ، قد احتل مكانة مرموقة في جلّ الأبحاث المتعلقة بالقرآن وكانت له أهمية تجلت فيما يأتي :

1- أنّه يعين على بيان المعنى وتحديده . وقد ذكرنا سلفا قول ابن قيم الجوزية رحمه الله الذي يبين فيه أهمية السياق في بيان المعاني ومعرفة المراد من الكلام ، ضاربا لذلك مثلا من القرآن الكريم ، وهو قوله تعالى:"ذق إنّك أنت العزيز الكريم "الدخان /46. فلو نظرنا إلى هذه الآية معزولة عن سياقها الذي وردت فيه لاحتمل الأمر أن يكون المراد منها التكريم والتعظيم ، لكن بردها إلى سياقها نجد أنها دالة على السخرية والاستهزاء والتهكم .

2- أنّه مهمٌّ في بيان صحة التفسير والترجيح عند الاختلاف .ومن أمثلة ذلك ما ورد في تفسير ابن كثير لقوله تعالى : (على الأرائك ينظرون)المطففين /23. قيل معناه ينظرون في مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد.وقيل معناه على الأرائك ينظرون إلى الله عزّ وجلّ ، وهذا مقابل لما وُصف به أولئك الفجار (كلا إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون) المطففين/15. فذُكر عن هؤلاء أنّه لهم النظر إلى الله عزّ وجلّ وهم على سررهم وفرشهم . فالآية تحمل المعنيين لكن ابن كثير رجّح القول الثاني عن الأول لوجود القرينة المرجِّحة .

3- هو مهم في بيان المناسبات على اختلاف أنواعها (المناسبة بين السور ، المناسبة بين الآيات ، المناسبة بين القصص، المناسبة بين كلمات الجملة الواحدة ، المناسبة بين السورة واسمها .

مثاله ما ذهب إليه ابن الزبير الغرناطي في تفسيره لقوله تعالى في الآيتين : (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله

---

[1]- المثنى عبد الفتاح محمود : نظرية السياق القرآني ، دار وائل للنشر ، الأردن ، ط1، 2008، ص15 .

يأتيكم بضياءٍ أفلا تسمعون (71) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير لله يأتيكم بليل تسكنون فيه تبصرون(72).)

فالآية الأولى ختمت ب(أفلا تسمعون) وهو مناسب للمدرك ليلا من ضربي ما يعتبر به المسموعات والمبصرات ، وإنما تدرك به المسموعات لأنّ ظلمة الليل غي مانعة من إدراكها ،فجيء بما يناسب مع ذكر النهار ما يناسب ، فقيل أفلا تبصرون ؛لأنّ المبصرات تُدرك نهاراً ولا تدرك ليلاً.

4- وهو مهم في بيان مرجع الضمير . قال تعالى: (وإنّه على ذلك لشهيد) العاديات /17 ، قيل الضمير يحتمل أن يكون عائداً إلى الإنسان ، وأن يكون عائدا إلى ربِ الإنسان المذكور في قوله تعالى : (إنّ الإنسان لربّه لكنودٌ)، ولكن النظم الكريم يدلّ على عودته إلى الإنسان.

5- يعين السياق على بيان المحذوف . قال تعالى في سورة مريم : (قالت إنّ] أعوذ بالرحمن منك إنْ كنتَ تقيا) الآية8 ، معنى قوله تعالى (إن كنت تقيا) أي أن تتقي الله وتبالي بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف وتقديره إني عائذة به أو فتعوذ بتعوذي أو فلا تتعرض لي .

6- مهمٌ في تحديد المشترك اللفظي وهو ما احتمل لفظه أكثر من معنى مثاله قوله تعالى : (والنجم والشجر يسجدان) الرحمن/6 . فالنجم يراد به الفلك الدوار في أبراج السمار ، ويراد به النبت الصغير قسيم الشجر ، وهو ما لم يقم من النبات على ساقٍ ، ومجيء الشجر في سياق الآية الكريمة يدل على أن المعنى الثاني هو المراد .

7- يعين السياق على بيان سبب النزول الصحيح عند تعدد أسباب النزول .

مثاله : ما رواه ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى:(فلا وربّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلِّموا تسليماً) النساء/65 . اختلف فيمن نزلت هذه الآية فقيل نزلت

في الزبير بن العوام وخصم له من الأنصار ، وقال آخرون نزلت هذه الآية في المنافق واليهودي اللذين وصف الله صفتهما في قوله (ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) النساء/60. وهذا القول الثاني أولى بالصواب، لأنّ قوله (فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم) في سياق قصة الذين ابتدأ الله الإخبار عنهم بقوله : (ألم تر إلى الذين يزعمون ......) .

8- كما يعين على تحديد زمن النزول . ومثال ذلك ما ذكره ابن جرير الطبري- رحمه الله -في تفسير قوله تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)البقرة 194.

اختلف أهل التأويل فيما نزل فيه قوله فقال بعضهم ...:هذا ونحوه نزل بمكة والمسلمون يومئذ قليل ، وليس لهم سلطان يقهر المشركين، وكان المشركون يتعاطونهم بالشتم و الأذى،فأمر الله المسلمين من يجازي منهم أن يجازي بمثل ما أوتي إليه أو يصبر أو يعفو فهو أمثل، فلما هاجر رسول الله إلى المدينة وأعز الله سلطانه أمر المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم، وأن لا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية.

وقال آخرون :بل معنى ذلك فمن قاتلكم أيها المؤمنون من المشركين بالمدينة فقاتلوهم كما قاتلوكم، وقالوا نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وبعد عمرة القضية...، وأشبه التأويلين بما دل عليه ظاهر الآية الذي حكي عن مجاهد (وهو القول الثاني) لأنّ الآيات قبلها إنما هي أمر من الله للمؤمنين بجهاد عدوهم على صفة ، وذلك في قوله : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم) البقرة /190.والآيات بعدها ، وقوله :(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)،إنما هو في سياق الآيات التي فيها الأمر بالقتال والجهاد والله جلّ وعلا إنما فرض القتال على المؤمنين بعد الهجرة أي في المدينة وليس في مكة .

9- يعين السياق على تحديد أسلوب الكلام ، فحيناً يخالف ظاهره المقصود به فيأتي التعبير بالماضي والمقصود المضارع ، والعكس وحينا يكون ظاهره الخبر والمقصود منه الإنشاء ونحو ذلك .ومثاله قوله تعالى : (والمطلقات يتربصن)البقرة /228. وقوله أيضاً: (والوالدات يرضعن أولادهنّ) البقرة /233. فالأسلوب أسلوب خبر لكن المراد منه الأمر ، والمرشد إلى ذلك هو السياق .

10- يعين السياق على تعميم الخاص ، وتخصيص العام .فمن الأول قوله تعالى : (ولا تقلْ لهما أفٍ) الإسراء/23 . فهو خاص يُفهم منه معنى عاماً وهو إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول أو الفعل . ومن تخصيص العام قوله تعالى : (وأحلّ اللهُ البيع) البقرة/275.فهذا عام خصّصه ما رُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم من النهي عن بيع الدرهم بدرهمين .

11- للسياق أهمية في الترجيح بين معاني القراءات . مثاله ترجيح ابن كثير رحمه الله تعالى قراءة (يؤتون) السبعية عل قراءة (يأتون) في قوله تعالى :(والذين يُؤْتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنّهم إلى ربّهم راجعون)المؤمنون/60. فبيَّن أنّ المراد الآثام بالسياق لقوله بعدها (أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) المؤمنون/60 . ومن فعل الآثام كان من المقتدين أو المقصرين .

12- السياق معين على معرفة سبب التقديم ، لأنّ أحد أسباب التقديم ما دلّ عليه السياق .مثاله : قوله تعالى : (ولكم فيها جَمَالٌ حين تريحون وحين تسرحون)النحل /6. لما كان إسراحها وهي خماص وإراحتها وهي بطان قدّم الإراحة ، لأنّ الجمال بها حينئذٍ أفخر .

13- السياق مهم في بيان المتشابه اللفظي كما أشرنا إلى ذلك سلفا [1].

وخلاصة القول :إنّ وعي علماء علوم القرآن بأهمية السياق في توجيه دلالة النص كان يفوق التوقع ؛ إذ أثبتوا بما لا يدع مجالا للشك أنّ معاني القرآن

---

[1] - أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني ،م.س ، ص ص 57 – 69 (بتصرف) .

وإهمال دلالته والتعلق بسياق السورة العام ؛ وذلك لأنّه لابد من إبراز دلالة سياق المقطع أولاً ثمّ الانتقال إلى سياق السورة" [1].

النوع الثاني: السياق الخاص / سياق المقطع

"يأخذ سياق المقطع دورا مهما في إبراز وتشخيص الموضوع القرآني وخصوصا في السور الطوال والمئين وبعض المفصل ، وقد قلّ اعتناء المفسرين بدراسة مقاطع و مفاصل السور القرآنية ،إذ كان جل اهتمامهم منصباً على التفسير الموضعي لآحاد الآيات ، وإذا دققنا النظر تبيّن لنا أنّ أمثل طريقة في بيان التناسب والتناسق بين الآيات القرآنية ، هو تقسيم السور إلى مقاطع بعد النظر في جميعها ، ومن ثمّ تحليل سياق المقطع لإبراز موضوعه الأظهر فيه وعندها يطلب وجه المناسبة بين الآيات"[2] ، طبعاً لأنّ في "إظهار المناسبات (...) ما يساعد على فهم النص القرآني ويبيّن معناه . قال الرزكشي [ت794هـ] رحمه الله : (اعلم أنّ المناسبة علم شريف تحرز به العقول ، ويعرف به قدر القائل فيما يقول ...، وفائدته :جعل الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء)"[3].

النوع الثالث : السياق الأخص / سياق الآية

وهنا لابد من التنبيه إلى أنّ معنى الآية الواحدة لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال النظر في سياقها بما قبلها وما بعدها من الآيات المجاورة. وهذا لا يعنى عدم وجود آيات تقوم على المعنى المكتمل والتام دون مشاركة الآيات

---

(1) - نظرية السياق القرآني ، ص ص 87-88 .

(2) - نفسه ، ص90

(3) - جلال الدين السيوطي :علم المناسبات في السور والآيات ، تح. محمد بن عمر بن سالم بازمول ، المكتبة المكية ، مكة المكرمة ، ط1 ، 2002 ، ص ص 40-41 .

المجاورة، ولعل خير مثال يضرب في مثل هذا المقام آية الكرسي التي تعدّ في ذاتها سياقا[1].

كما يتنوع السياق من حيث الترجيح الاجتهادي حسب رأي صاحب نظرية السياق القرآني إلى:

- **الصنف الأول ترجيح السياق بسباق ولحاق.**
- **الصنف الثاني ترجيح السياق بسباق .**
- **الصنف الثالث ترجيح السياق بلحاق[2].**

والحق أنا لا نرى لهذا التنويع من هذه الحيثية أي داعٍ ؛لأنّ ركني السياق (السباق واللحاق) لا غنى عنهما في عملية الترجيح الدلالي حتى في الأنواع الثلاثة الأولى التي نعدها بحق أنواعا للسياق القرآني قائمة بذاتها؛ إذ من خلال النظر في سياق السورة أو المقطع أو الآية وعلاقة كلّ منها بما قبلها وما بعدها يتسنى لنا النظر في معانيها على الوجه الذي يليق بجلال النظم.

فوائد السياق القرآني:

للسياق القرآني فوائد جمة نلخصها في النقاط الآتية:

أ- توجيه المتشابه اللفظي وبيان الفروق الدقيقة بين الآيات.

ب- التنوع الدلالي الذي يجعل الآية الكريمة تحمل مرونة وحيوية في قابلية تعدد المعاني وتنوعها.

ت- الترجيح الدلالي بين المعاني الظنية التي تحتملها الآيات.

ث- دفع شبه التكرار المعنوي.

ج- نقد الروايات التي تتصادم مع السياق القرآني مصادمة واضحة .

ح- دفع الأوهام التي تطرأ في فهم السياق [3].

---

(1) - نظرية السياق القرآني، ص ص 96-97 .

(2) - نظرية السياق القرآني، ص ص 115-124 .

(3) - نفسه ، ص398 .

الخاتمة:

لا شك أنّ السياق كان ولا يزال عامل تحديد وتقييد لمجال النص (سورة كان أو مقطعاً أو آية) التفسيري والتأويلي. فهو يضبط فهم المتلقي ويلغي الفوضوية الفكرية التي يمكن أن تحصل لمن يُلقي بالسياق جانباً .ولقد احتكم إليه المفسرون عبر العصور المختلفة، وكان مرجحا دلاليا له حاكميته ووجوده في كتبهم. فهو بالنسبة لهم الطريق الصحيح والقويم، والمورد العذب للوصول إلى مراد الله تعالى من كلامه.